أسباب ما آلت إليه الأمة وطُرق عملية لاستنهاضها

بقلم الشيخ

أبي سعد العلي

حفظه الله

مؤسسة المائدة الإعلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

مؤسسة المأسدة الإعلامية

– تقدم –

أسباب ما آلت إليه الأمة وطرق عملية لاستنهاضها

للشيخ : أبي سعد العاملي (حفظه الله)

1432هـ | 2011م

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد
نظراً لأهمية هذا الموضوع، ارتأينا أن نجمعه ونرتبه ونعيد نشره في شكل بحث مستقل جامع بدلاً من تركه صفحات متفرقة قد يصعب على القارئ الكريم الوصول إليه في زخمة المواضيع الكثيرة على صفحات شبكة الشموخ، وهذا طمعاً منا أن تعم الفائدة فيساهم القارئ الكريم في إضافة ما لديه من أفكار ومقترحات للمساهمة في عملية نهوض الأمة، وهي عملية لابد أن يشارك فيها الجميع، كل على على قدر طاقته.

1- الحالة التي آلت إليها الأمة وأسباب ذلك

يسعدني أن أشارك معكم في هذه الورشة النافعة والحوار الهام على شبكة شموخ الإسلام المباركة حول حال الأمة وما آلت إليه ثم محاولة البحث عن أسباب هذه الانتكاسة لإزالتها وعن مقومات النهوض للأخذ بها.

قبل البدء أود أن أطلب من الإخوة الأحبة المتابعين لهذا الحوار أن ينقلوه إلى إخوانهم غير المتابعين الذين لا تسمح لهم الظروف بالانخراط في هذه المنتديات الجهادية، فرب مبلغ أوعى أو أفقه من سامع، وأقترح على الإخوة أن يأخذوا بأحسن الكلام وأنفعه ويتدارسوه فيما بينهم على شكل حلقات تكوينية لعل هذه المادة تكون لهم عوناً على الطريق ، وهم بدورهم سيتمكنون –بلا شك – من إضافة أفكار واقتراحات عملية من خلال مسيرة الدعوة والإعداد قصد المساهمة في النهوض بالأمة، فكلكم راع وكل مسئول عن رعيته.

بورك في الشيخ والأخ الحبيب أبو مسلم الجزائري على هذه المبادرة الطيبة وفي مشايخنا الأفاضل رضوان وأبو عبد الوهاب وفي كل من شارك في هذه الندوة والحوار المفتوح الهام والحساس للغاية.

كونه يتطرق لأهم معضلة تشكو منها الأمة على الإطلاق وترتبط بالأسباب التي جعلتها تكون في المؤخرة على جميع المستويات وفي جميع الميادين ، وبخاصة حينما فقدت مكانتها الريادية بين الأمم كما أراد الله جل وعلا فتصبح بعد ذلك قصعة جاهزة للأكل تتداعى عليها أمم الكفر قاطبة كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها أو السباع إلى فريستها.

فأول أسباب هذه الحالة التي تتبادر إلى ذهن المسلم هو مرض " الوهن" (حب الدنيا وكراهية الموت) كما أخبر بذلك النبي المعصوم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم، وكل واحد منا ناله أو أصابه جزء من هذا المرض بصورة أو بأخرى، وبالتالي نكون كلنا مسئولين عن هذه الحالة التي نحن فيها ولو بدرجات متفاوتة، فكل الضمائر مسئولة ومن الظلم الكبير أن نضع حمل وعبء هذا الجرم على فئة معينة دون أخرى.

لقد فطن الأعداء إلى خطورة هذا المرض وكأنهم فقهوا حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فعمدوا إلى زرعه في الأمة في الوقت الذي استهان فيه المسلمون بهذا المرض ولم يعدوا له عدته ولا دواءه .

فكل ما تعانيه الأمة اليوم من ضعف وتشتت وبعد عن الدين وفقدان للقيم والأخلاق ولامبالاة وجبن وذل وهوان وركون إلى الذين ظلموا وغيرها من المثبطات والمهلكات، كلها تعتبر أعراض مباشرة لهذا المرض الخطير.

فعنه تتشعب كل المصائب التي تشكو منها الأمة وعلى رأسها ترك الجهاد الذي يمثل السياج الأمثل لوقاية وحماية الأمة من أطماع المحتلين، كما يمثل رأس رمحها في مواجهة كل الطامعين فيها وفي ثرواتها، وهو الذي يحمي دينها ودنياها.

ومن هذا المرض الخطير يمكننا معرفة واكتشاف مواطن الضعف في الأمة، بمعنى آخر يمكننا اكتشاف ضعف المناعة في جسمها والسعي بالتالي إلى إيجاد الغذاء الطبيعي المناسب لتقوية هذه المناعة ثم في المرحلة التالية البحث عن الدواء الذي سيخفف من هذا الداء أو سيقضي عليه بصفة نهائية.

فالحق والحق أقول أن كل أسباب الضعف التي توجد في هذه الأمة والتي كانت سبباً مباشراً لإيصالها إلى هذه الحالة، كلها تتشعب عن مرض الوهن، الذي بدوره ينقسم إلى شطرين:

حب الدنيا والتعلق بها وإيثارها على الآخرة، مما يؤدي بالضرورة إلى ترك الكثير من الواجبات بله الفروض الشرعية، ومن ثم تنشأ أمراض فرعية أخرى من قبيل حب الذات والتفرغ للأمور الدنيوية والانغماس في الشهوات والملذات كما يعبر القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ۖ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا ﴾ [مريم: 59]، وغيرها من السلبيات والمثبطات والمكبلات.

وكراهية الموت، وهو عدم الاستعداد للقاء الله مما ينتج عنه بالضرورة الإفراط في حب الدنيا، ونسيان الحساب والعقاب ، والتكاسل عن الاستعداد لليوم الآخر، وهو بدوره ينتج عنه الجبن والخوف من مواجهة الصعاب والبخل حرصاً على مصالح هذه الدنيا الفانية، وهو بدوره يؤدي في النهاية – مثله مثل حب الدنيا – إلى ترك الواجبات الشرعية، والاكتفاء ببعض الأعمال الصغيرة التي لا تصل إلى النصاب المطلوب إسقاطاً للواجب وخداعاً للنفس وإيهامها على أنها قد قامت بما عليها.

وهذا الحديث ينطبق أساساً على الفئة الواعية في الأمة وأقصد العلماء أو ورثة الأنبياء، فهذه الفئة واجباتها أعظم وأكبر من الفئات الأخرى، وحينما تزل وتنحرف فإن خلقاً عظيماً سيزل وينحرف معها دون شك، مما يتطلب منها يقظة متواصلة وثباتاً واستقامة لا تنقطع ولا تفتر.

فالعلم الذي تحمله أو حَمَّلَها الله إياه يكون تكليفاً قبل أن يكون تشريفاً، وله تبعات عديدة لابد من أدائها والوفاء بها، فالعالم محاسب أكثر من غيره وموضوع تحت المجهر لكي ينظر الناس ماذا يعمل ليقتدوا به، لذا وجب التنبه واليقظة الدائمة كما قلت واعتبار أن هذا العلم ابتلاء وفتنة من الله عز وجل لينظر أيشكرونه أم يكفرونه، وشكر العلم هو تزكيته والعمل به ونشره بين الناس ثم التزام أمر الله في السر والعلن وفي السراء والضراء وفي اليسر والعسر.

ولابد من تذكير الإخوة والأخوات أن العلم درجات وأن كل مسلم آمن بالله واليوم الآخر ورضي لنفسه أن يحمل هذا الدين فإنه يكون عالماً بصورة أو بأخرى، وبالتالي فإن الحديث الذي سبق يناله هو أيضاً كل على قدره، فلا ينبغي إذن الاعتقاد أننا بمنأى عن هذه المسئوليات الملقاة على العلماء، فكل من علم شيئاً أو مسألة فإنه يدخل بها في زمرة العلماء ويقع عليه واجب العمل والالتزام بها قبل تبليغها.

هذه بعض رؤوس الأقلام وبعض الأفكار التي أردت أن أشارك بها الإخوة في مسألة تشخيص حالة الأمة قبل الخوض في وصف الدواء اللازم.

بارك الله في الجميع ووفقكم لما فيه الخير والصلاح لديننا ولهذه الأمة الخاتمة والشاهدة على بقية الأمم ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ [البقرة: 143]، أسأل الله أن يعجل فرجه ويُذهب الغمة عن هذه الأمة، والحمد لله رب العالمين أولاً وآخراً.

2- بعض الأسباب المانعة لعملية النهوض

ننتقل إلى الجزء الثاني الذي يتطرق إلى الحلول العملية لاستنهاض الأمة، وقد تحدثت في الجلسة الأولى عن الوهن كسبب رئيسي لقعود الأمة وتثبيطها عن أداء واجباتها الكثيرة اتجاه دينها كما أمرها الله جل وعلا في كتابه وشرفها بالخيرية بين الأمم في قوله تعالى ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ ﴾ [آل عمران:110]، وقوله تعالى ﴿ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴾[الحج:40].

فهذه الخيرية تكليف قبل أن تكون تشريفاً، وعملية النهوض تستلزم التخلص من مرض الوهن وهو الذي يتجسد في حب الدنيا والركون إليها من جهة ثم كراهية الموت من جهة أخرى.

لا شك أن هناك أسباب عديدة تسببت في ظهور هذا المرض حتى تفشى في جسد الأمة بهذا الشكل المذهل والمهول على مستوى النفوس والعقول وبات معوقاً وعائقاً كبيراً يحول دون عملية النهوض، وعلى ضوء هذه الأعراض والأسباب سنحاول عرض الدواء المناسب لكل واحد من هذه الأعراض، يمكننا تلخيصها كالتالي:

أسباب يمكننا تسميتها بالداخلية أو الذاتية، تتحمل فيها الأمة المسئولية كاملة.

1– غياب العقيدة الصحيحة لدى الأمة: فهي رأس الأمر كله والبوصلة التي توجه الفرد والجماعة على حد سواء في هذه الحياة وتحدد له المنهجية الواجب اتباعها، كما تمنح الأمة الحصانة والحماية من كل ما يتهددها من عقائد ومذاهب باطلة. [انظر في هذا الباب بالتفصيل: " عوامل النهوض وشروطه" – للكاتب– إصدارات مؤسسة المأسدة – شبكة شموخ الإسلام].

2– غياب العمل الجماعي في تطبيق الدين والروح الجماعية بصفة عامة : نتج عن غياب العقيدة الصحيحة وممارستها في الواقع تسرب أمراض وعاهات كثيرة وكبيرة إلى جسد الأمة، منها انتشار الروح الفردية واللامبالاة لدى الشعوب بحيث صار كل حزب بما لديهم فرحون، وغلبت الفردية المقيتة وطغت على الروح الجماعية في كل شيء، حتى في الصلاة صار المسلم يجد صعوبة وتكاسلاً في أدائها في الجماعة خاصة صلاتي الصبح والعشاء، مما أدى بالتالي إلى ترسيخ العمل الفردي العشوائي والبعد عن الجماعة وعن العمل المنظم إجمالاً. وهذا بدوره نتج عنه الانزواء في البيوت والاهتمام بشؤون البيت والأولاد، وتحقق تحذير رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث: " إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية"، فصرنا فريسة لكل ذئب وعلى رأسهم الشيطان وهذه الأنظمة الحاكمة المرتدة التي يسهل عليها التحكم برقاب العباد ونشر الفساد العريض دون رقيب ولا حسيب.

3– غياب الطاعة لله عز وجل والامتثال لأوامره، وهذا نتج عنه ما يلي:

- **شح مطاع**

أدى بالمسلم أن يظل وحيداً متوارياً عن الأحداث لا يستطيع مواجهتها ولا التأثير فيها، كما أدى به إلى ترسيخ الأنانية وحب الذات وإيثار المصالح الذاتية على المصالح العامة للأمة، ومن ثم التفرج على مآسي المسلمين والاكتفاء بالتأثر السلبي البعيد عن الممارسات العملية من قبيل الإنفاق في سبيل الله سواء في مرحلة الإعداد أو الجهاد.
هذا على مستوى المال، وقد نتج عنه بالضرورة الخوف والجبن والخوف من تبعات الابتلاء في الدين من مطاردة وسجن ثم بالضرورة الخوف من الموت والهروب من ساحات القتال ومواجهة الأعداء، فالذي لا يستطيع أن ينفق من ماله ووقته لن يستطيع – من باب أولى – أن يضحي بنفسه في سبيل الله.

- **إعجاب كل ذي رأي برأيه**

انتشر الجهل والتعصب للرأي، مما أدى بالتالي إلى التكبر على الحق والاستعلاء على أصحاب الرأي وذوي الكفاءات وعلى الدعاة الصالحين والتكبر عليهم، بحجة أنني أفهم مثلهم وليس لديهم ما يتميزون به عني، ومن ثم فلا يحق لهم أن يأمروني باتباعهم أو الانتماء إلى جماعتهم.

هذه هي القناعة التي تترسخ في أذهان هذا الصنف من البشر، أدت بالتالي إلى كثرة الجماعات والطوائف وانتشار الخلاف والصراع فيما بينها حيث أن كل واحدة تدعي العصمة لنفسها ومنهجها وتصف الباقي بالجهل والتقصير.

4- غياب دور العلماء في القيام بواجباتهم ، حيث يقع على عاتقهم القسط الأكبر بسبب تركهم للدور المنوط بهم في ضرورة توعية الناس بأمور دينهم وواجباتهم ثم تخلفهم عن تصدر الصفوف بالثبات على الحق ونشره والصدع به أمام الحاكم الظالم ثم المستبدل لشرع الله بعدئذ.

5- ودور الحركات الإسلامية السلبي في القيام بدور الريادة في عملية رفض المحتل، والعجز عن استنهاض همم الشعوب، ونهج السياسة الخاطئة في التعامل معها ومع الأنظمة المرتدة القائمة.

في هذه النقطة يمكننا القول أن أغلب هذه الحركات لعبت دور المخدر للشعوب وأخرت بشكل ملفت وكبير عملية النهوض المطلوبة، وهذا بسبب المنهج الخاطئ الذي تبنته في مسيرة التغيير.

فبدلاً من أن تتصادم مع أصول هذا الواقع الفاسد وتحاول بيان فساده للناس وتقديم بديل قائم على الدين ، سارعت إلى الالتقاء مع هذا الواقع في منتصف الطريق ورضيت بأنصاف الحلول أو ربما أرباعها حفاظاً على بعض المكاسب الهزيلة سمتها فيما بعد بالمصالح المرسلة وقدمت حججاً واهية تغطي بها هذا الانحراف الخطير، من قبيل المحافظة على مصلحة الدعوة وادعاءها أنها تعيش مرحلة مكية تُجَوِّز لها عدم التصادم مع أسس ورموز هذا الواقع الفاسد، وكلها ساهمت في الابتعاد عن الحلول السليمة لمعالجة هذا الواقع.

وهناك عوامل خارجية تتحمل فيها الأمة جزءاً من المسئولية أيضاً بسبب ركونها وقبولها للمحتل ولإملاءات الحكام المرتدين .

يمكننا إذن ذكر أهم هذه الأسباب كما يلي:

1- إجماع اليهود والذين أشركوا (من صليبيين وملحدين ومرتدين ومنافقين وغيرهم) على محاربة هذه الأمة وتطويعها بالقهر والقوة تارة وبالتضليل ونشر الفساد وتحبيب الشهوات وتزيينها وتسهيل ممارستها تارة أخرى حتى تترك دينها وتقف عاجزة وتائهة عن القيام بأي حركة نهوض ، ثم القبول بالأمر الواقع كقدر ثابت لا يمكن تغييره.

2- استهداف الفعاليات والشخصيات الصادقة في الأمة مثل العلماء والضغط عليهم من أجل استمالتهم وتعطيل عطاءاتهم أو تمييعها وتحريفها عن مسارها الصحيح ، ومن يرفض منهم الدخول في هذا المخطط ينتقلون معه إلى أسلوب التصفية أو السجن أو التهجير.

3- إغراق المخلصين من أبناء الأمة في بحر من الشهوات وربطهم بالدنيا عبر توظيفهم في مؤسسات النظام الفاسد واعتبار ما يقومون به واجب لا مفر منه، وإقناعهم بأن هذه المشاركة ستساهم في إصلاح المجتمع وهداية الناس والتحول إلى قدوة للشعوب بحيث نجد المهندس المسلم والطبيب المسلم والأستاذ المسلم وغيرها من الوظائف السامية المغرية التي يحلم بها البسطاء من الناس.

تترسخ لديهم قناعة أنه لابد من مشاركة المجتمع حتى تتحول هذه المسألة إلى غاية في حياة هؤلاء مع الاكتفاء بممارسة بعض الشعائر التعبدية أو القيام ببعض الأعمال الخيرية ظناً منهم أنها تفي بالمراد، فيبتعدون عن الساحات الحقيقية للدعوة والتربية والإعداد والجهاد، وتبصير الناس بالواقع الحقيقي ومحاولة رفع الظلم عن المظلومين والجهل عن الجاهلين.

3- وسائل وعوامل النهوض

انطلاقاً مما سبق وعلى ضوء تلك الأسباب التي كبلت الأمة وجمدت طاقاتها نحو التحرير والنهوض مما فيه، يمكننا الآن التطرق إلى وسائل النهوض وتسليط الضوء على أهم العوامل التي أراها ستساهم في هذه النهضة المرتقبة.

أولاً: نشر عقيدة صافية في نفوس الشعوب

عقيدة التوحيد القائمة على المفاهيم الحقيقية الربانية للإنسان ودوره في هذه الأرض، والمفهوم الحقيقي للحياة الدنيا والآخرة، وتصحيح مفاهيم الولاء والبراء، ومفهوم الحاكمية، ومفهوم الكفر والإيمان، وغيرها من المفاهيم الأساسية التي يقوم عليها هذا الدين والتي حاول أعداؤنا طمس معانيها ومفاهيمها الحقيقية في عقول الناس، حتى صارت شعوبنا لا تكاد تفرق بين مؤمن وكافر، وبين مرتد ومنافق، وبين حاكم شرعي وآخر مرتد مستبدل لشرائع الله المنزلة، كما أنها خلطت بين العدو والصديق، بل واتخذت أعداء الله أولياء من دون المؤمنين وابتغوا عندهم العزة، كما أعلنوا العداء للمؤمنين الذين يأمرون بالقسط بدلاً من نصرتهم وموالاتهم بسبب انطلاء إشاعات الأعداء وأكاذيبهم عليهم.

أما كيف ننشر هذه العقيدة، فأقول بكل الوسائل الممكنة، أفراداً وجماعات، سراً وعلانية، بالنشرات المكتوبة والتسجيلات السمعية والمرئية، عبر حلقات العلم والتكوين بإنشاء دور متخصصة لذلك على غرار دار الأرقم بن أبي الأرقم، حتى يفتح الله على المؤمنين وسائل أوسع ومنابر أعم.

كما ينبغي التركيز على الدعاة والخطباء والعلماء وطلبة العلم، لكي يكونوا أول من يفهم هذه المفاهيم المهجورة ويرسخوها ويفقهوها لكي يؤمنوا بها ويتحولوا إلى دعاة على منابرهم وميادين عملهم.

أود أن أركز على نقطة مهمة جداً لابد من استحضارها جيداً ونحن نخوض ميدان الدعوة.

اعلموا أيها الإخوة أن المرحلة الأولى من الدعوة ينبغي أن تركز على تأسيس أو إنشاء القاعدة الصلبة من المؤمنين، فالحركة ليست في مرحلة الدولة لكي تخرج بدعوتها إلى كل الناس، لأن ذلك يستلزم وجود مؤسسات كثيرة لاستيعاب هذه الفئات العريضة من المدعوين، إذ لابد من تحصينهم ومتابعة تكوينهم وتربيتهم ثم توظيفهم بعد ذلك، وهذا لا يمكن أن يتأتى لحركة ما زال يعيش أفرادها المرحلة السرية ولا يملكون المقومات المادية اللازمة لاستغلال هذه الطاقات الكثيرة.

من هنا ينبغي التركيز على صفوة من المؤمنين، يتم تربيتهم وفق برنامج مكثف، والتكوين يشمل الجانب النظري والعملي في وقت واحد، لنتمكن من إخراج قيادات جاهزة بإمكانها بدء الدعوة وتكوين خلايا جديدة .

أما محتوى البرنامج التكويني فأرى أنه لابد من أن يركز في البداية على ترسيخ مفهوم التوحيد والعقيدة الصحيحة والشاملة في نفوس هذه الفئة المرشحة لأن تكون القاعدة الصلبة المرتقبة للتجمع الإيماني.

وبموازاة مع هذا ينبغي تلقين العلوم الأخرى التي يتطلبها الميدان، كل حسب اختصاصه وقدرته وميوله، فلابد من مراعاة طاقة وموهبة كل فرد في الجماعة، فكل ميسر لما خُلق له.

وأفضل طريقة لترسيخ المفاهيم والدروس النظرية هو الممارسة في الواقع والاختلاط بالناس والصبر على أذاهم، بدلاً من اعتزالهم والترفع عليهم.

كما ينبغي استغلال الشبكة العنكبوتية الواسعة الانتشار والتي تتميز بكونها تتخطى الكثير من العقبات لكي نوصل كلمة الحق إلى من نريد بدون رقيب ولا حسيب، لا يمكن أن ننكر دورها الفعال والمؤثر جداً في مجال الدعوة والتواصل مع الناس بكل يسر وإيصال كل ما نريده.

لذلك من الواجب علينا الحرص على تطوير منابرنا على الشبكة وتأمينها وصيانتها لتواصل عملها في هذا المجال بكل نجاح، لأنها تُعتبر منبرنا الوحيد لنشر دعوتنا على أوسع نطاق ممكن وبأقل الخسائر المادية والبشرية.

ثانياً: عمل جماعي منظم

لا يمكن الحديث عن نشر الدعوة والتأثير في الناس بدون عمل جماعي منظم، وإلا فالجهود ستكون مبعثرة وسيغلب على طابع الفردية واللامبالاة والعشوائية على تحركات الناس بصفة عامة وعلى الملتزمين المخلصين بصفة خاصة.

فالإسلام بطبيعته دين جماعي كما أن الإنسان بفطرته اجتماعي ويكره الفردية في كل شيء، وطبيعة الخطاب القرآني أنه جماعي في أوامره ونواهيه ، ومن هنا يتوجب على الدعاة والمخلصين من أبناء هذه الأمة أن يحيوا هذه السنة ويرسخوا فرضية العمل الجماعي كما يرسخوها في صلاتهم الجماعية وحجهم وصومهم، ينبغي كذلك من باب أولى أن تكون حاضرة بقوة أثناء ممارسة عملية التربية والتكوين والإعداد لإحداث نهضة إسلامية شاملة.

قد يقول قائل بأن هذا الأمر له ما له من عواقب وخيمة وفيه ما فيه من مخاطر على أمن الأفراد، وأقول أنه ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، ولا يمكن أن نخالف سنة هذا الدين وطبيعته ونعصي رب العزة في فرضية الجماعة والاجتماع بسبب تخوفات في رؤوسنا، فنحن حينما قبلنا الانتماء إلى هذا الدين فإنما هي بيعة لله عز وجل بالتضحية بأموالنا وأنفسنا لنصرة دينه ﴿ إِنَّ اللّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّهِ فَاسْتَبْشِرُواْ بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة:111.].

إنها بيعة لا تراجع فيها وليس هناك طريق آخر نسلكه غير طريق التضحية والفداء والابتلاء، ومن يُمَنِّي نفسه بغير هذا فهو واهِمٌ ولن يكون من أهل الإيمان فضلاً عن أن يكون من أهل الدعوة والجهاد.

إن الله تعالى يطالبنا بأن نأخذ حذرنا في كل شيء، وعلينا أن نأخذ بالأسباب اللازمة لتفادي الابتلاء، فكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " لا تتمنوا لقاء العدو، وإذا لقيتموه فاسألوا الله الثبات"، أو كما قال عليه الصلاة والسلام ، فهذه قاعدة عامة في حركتنا بهذا الدين، تقدم مع الحذر،وتوكل على الله مع الأخذ بالأسباب.

فالعمل الجماعي ركيزة أساسية لكل نهضة قادمة، لكي لا تضيع الجهود وتتبعثر الطاقات فيأتي كل من هب ودب ليقطف ثمرة جهود شعوبنا على حين غفلة منها ليسوقها إلى مصير مجهول بعيداً عن قيمها ودينها كما حصل ويحصل في أغلب بلداننا المسلمة.

فرسولنا الكريم بدأ دعوته من دار الأرقم بن أبي الأرقم فجمع حوله الصحابة الكرام من مختلف المستويات الاجتماعية لينشئ تجمعاً إيمانياً متجانساً عقدياً ، له قيادة واحدة ورؤية واحدة ومنهجية واحدة، ثم انتهى إلى إقامة دولة الإسلام في المدينة وكان أول عمله بعد بناء المسجد النبوي هو المؤاخاة بين الأنصار والمهاجرين لتظل ركيزة الجماعة والاجتماع على منهج الله قائمة وهي الأساس في البناء الإسلامي القائم.

أشداء على الكفار رحماء بينهم

هناك صفات كثيرة ينبغي أن يتصف بها أفراد التجمع الإيماني ، أركز على هاتين الركيزتين ، فلا يمكن أن نجد تعبيراً أدق وأشمل وأصدق للحالة التي ينبغي أن يكون عليها أفراد التجمع الإيماني، من التعبير القرآني إذ أنه تعبير إنشائي وفي الوقت ذاته أمر للمؤمنين أن يجسدوه واقعاً في حياتهم الدعوية والجهادية.

فالشدة تقابلها الرحمة، وليس هناك ثمة تناقض بل هو تكامل وشمولية في الخُلق والتعامل مع الغير.

الشدة في مواجهة أعداء الدين وأعداء الحق بل أعداء الإنسانية، والذي يُعتبر حصن منيع للتجمع الإيماني، في مقابل الرحمة بين المؤمنين والذي يُعتبر عنصر قوة ومدد روحي يزود التجمع بالمناعة اتجاه الأطراف المعادية.

فلا يمكن للتجمع أن يصمد اتجاه المخاطر الخارجية والداخلية بدون وجود هذا التلاحم وهذه الرحمة وهذا الإيثار بين أفراده.

أفراد التجمع كتلة واحدة، كل عضو له مكانته وقيمته –كالجسد الواحد –، لا يمكن أن نستغني عن عضو من الأعضاء كما لا يمكن لعضو أن يعمل خارج النظام الذي جُبِلَ عليه وإلا حدث خلل في الجسم ، والنظام الذي ينبغي السير عليه في التجمع الإيماني هو ما فرضه الله علينا من طاعته وطاعة أولي الأمر منا في المعروف، وأن لا نخاف في الله لومة لائم إذا ظهر لنا ما يخالف أمر الله وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم.

فالجنود هم بمثابة الحراس الأمناء للتجمع الإيماني من الزيغ عن الحق، ولا ينبغي أن تأخذهم في الحق لومة لائم كما لا ينبغي أن يُقدِّموا أقوالهم على قول الله ورسوله ليضمنوا لتجمعهم المناعة الإيمانية والتقدم السريع والأكيد نحو نهضة إسلامية مباركة.

ثالثاً : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة

مسألة الإعداد نغفل عنها كثيراً في مرحلتها المناسبة، حيث يكون لدى الإخوة متسع من الوقت ومن الأمن لكي يعدوا أنفسهم على جميع الأصعدة قبل الخروج إلى ساحات الدعوة والجهاد.

فلابد أن نفصل مرحلة الإعداد عن بقية المراحل ، ونخصص لها وقتها اللازم لكي تؤتي ثمارها المطلوبة، بمعنى آخر لا ينبغي أن نحرق المراحل ونستعجل قطف الثمرة فنُحرم منها، أو نكون سبباً في تأخير مسير الدعوة والجهاد.

فالعبرة ليست في قبول عمل ما ومحاولة إنجازه أو القبول بالوقوف على ثغر من ثغور الإسلام العديدة ما لم يكن ذلك معززاً بمؤهلات كافية للفرد تمكنه من إنجاز أعماله بكل نجاح.

- إعداد معنوي ونظري

فالإعداد يحتاج إلى جمع الجهود ووضعها في المكان المناسب، والمطلوب إعداد محكم شامل، ومنه الإعداد المادي الذي يشكل الجانب الرئيس لمن تأمل واقع هذه الحكومات المرتدة وأسيادها الصليبيين واليهود، حيث أنها لا تؤمن بالحوار ولا بالحلول السلمية، كما لا تدع مجالاً لخصومها بنشر الدعوة والتحرك بكل حرية في الساحة، مما يؤكد أن ضرورة امتلاك القوة أو حق القوة هو من أولى الأولويات في عملية الإعداد.

والإعداد النظري يُسمى عندنا إعداد إيماني، حيث ينبغي الارتقاء بالفرد المسلم إلى درجة عالية من الإيمان حتى يستلذ الابتلاء في سبيل الله ويعتبره نعمة من الله تعالى ودليل اصطفاء. ثم يملأ قلبه بالشكر والرضى بما يصيبه في هذه الحياة الدنيا فيستوي لديه الخير والشر من الابتلاء ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾[الأنبياء:35].

كما ينبغي أن يعتبر نعم الله عليه فتنة وامتحان لإيمانه، أيشكر ربه عليها أم يكفر، وليس علامة من علامات الاصطفاء كما يعتقد الكثير من الناس ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنكَ مَالا وَأَعَزُّ نَفَرًا.﴾ [الكهف 34].

كيف يتم الاعداد؟

اعلم أن عملية الإعداد لا تتم في السراديب، وإنما تتم في واقع، فهناك من الأعمال ما هو داخل في الإعداد لا يمكن أن تقوم بها إلا علناً، ولكن الكثير بل الجزء الأكبر يجب أن يكون سراً، ولا يمكن للعدو أن يعلم به، ولسنا من دعاة الاستعجال أو استفزاز العدو ليقحمنا في معارك جانبية وهامشية لا مصلحة لنا فيها، فيجب علينا أن نعلم متى نخرج للمعركة وفق مقوماتنا ووفق برنامج يتوافق وإعدادنا، هذا من الناحية النظرية، أما من الناحية العملية والواقعية فأحياناً يصعب عليك تطبيق برنامجك، وتجد نفسك مضطراً إلى اتخاذ بعض المواقف العملية علناً، التي من شأنها أن تكشف أموراً، فالمسيرة لابد أن يكون فيها خسائر، لأن الطريق مفروش بالأشواك والعقبات وليس بالورود.

ومن يظن أنه سيقطع كل أشواط الإعداد دون أن يُعرف أو يتنبه العدو لبعض تحركاته ويكشف بعض مواقعه، فهذا غافل عن سنن الله في الدعوات، وعليه أن يبحث عن عالم آخر يتحرك فيه، وسنن أخرى لدعوته الغريبة.

- إعداد للجنود والدعاة

أقول : فأما الإضرار بالدعوة فقد سبق أن تحدثت عنها سابقاً وقلت إن الدعوة تنشط أكثر وبصفة فعالة حينما يكون التجمع في مرحلة الابتلاء والتمحيص وليس العكس، لأن الذي يلتحق بالتجمع حينئذ يعلم يقيناً ما ينتظره في الطريق، وسيخلو التجمع من كل عناصر النفاق والضعف، كما كانت المرحلة المكية بالنسبة لدعوة النبي صلى الله عليه وسلم، حيث لم يكن هناك نفاق ولا منافقون.

أما تكوين القاعدة، وهي القاعدة الصلبة التي ستتحمل البناء فيما بعد، فهي الأخرى لا يمكن أن تتم وتتأسس إلا في مدرسة التمحيص والابتلاء ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُون ﴾[العنكبوت 1] ، أما بناء القواعد في الرخاء وسعة الأمر فينتج عنه البناء الغثائي كما هو واقع حالنا اليوم، حيث أن الأعداد هائلة ولكن الإنتاج ضعيف إن لم أقل منعدم، إلا لدى التجمعات التي توجد في مراحل الابتلاء والتمحيص والمواجهة مع العدو.

وخير شاهد على هذا هو واقع الحركات الإسلامية المتباين، فقارن على سبيل المثال ما تعيشه كل الحركات المتواجدة في الساحة والتي تتبنى العمل السياسي وتهرب من التصادم مع السلطات القائمة، بل تعتبر هذا الصدام من المحرمات، قارن واقعها وحالها مع حالة الحركات الجهادية التي تبنت خط الجهاد والصدام مع هذه الأنظمة، لتجد الفارق الكبير بينهما وذلك على مستوى التكوين والعطاء والتقدم لخدمة هذا الدين.

إن القاعدة العريضة الحقيقية لا تنشأ في فراغ أو خلال التربية النظرية، بل وسط ألغام الابتلاء والتمحيص والحركة، فمن الذي يخيف العدو يا ترى؟ ألوف مؤلفة من القاعدين أم عشرات من المتحركين؟ انظروا إلى واقعنا لتدركوا هذه الحقيقة الناصعة، جماعات تُعدُّ بالألوف إن لم أقل بالملايين لا يعبأ لها الطاغوت ولا يأبه لها بسبب منهجها المسالم وطريقتها الموافقة لقوانينه وشرائعه، بينما جماعات الجهاد التي يُعدُّ أفرادها بالعشرات تُسخَّر لها كل الطاقات لتتبع آثارها من أجل حصارها ومحاربتها ليل نهار.

بل إن العالم بأكمله قد أجمع أمره وتناسى خلافاته وخصوماته، وسن قوانين وأبرم اتفاقيات من أجل محاربة"الإرهاب" و"الإرهابيين "، وما الإرهاب المقصود إلا الجهاد وما الإرهابيون في عرفهم سوى المجاهدون، فهل من معتبر؟
ومن هنا تزداد قناعتنا بأن ما عليه المجاهدون اليوم هو الحق، وبأن طريقهم هو الذي سيوصل إلى سخط الطواغيت وإرضاء الله عز وجل.

وهذا هو الصنف من الرجال الذين ينبغي تكوينهم وتربيتهم ومن ثم الزج بهم في المعارك مع الأعداء.

- إعداد البنيات التحتية

العمل من أجل تغيير الواقع أمر يحتاج إلى قواعد كثيرة تكون بمثابة الزاد الذي يرجع إليه المجاهدون والملاذ الآمن الذي ينطلق منه الجنود لتنفيذ مهامهم.

والحرب مع الأعداء كر وفر وهذه القواعد ضرورية لحماية ظهرك من العدو واللجوء إليها لمزيد إعداد وتدبير للأمور بعيداً عن أعين العدو.

والجماعة المجاهدة لابد أن تكون طموحاتها كبيرة بقدر الدين العظيم الذي تحمله وتسعى لتطبيقه في الواقع، لذلك فهي مطالبة بتوفير كل مستلزمات هذه المهمة الكبيرة والثقيلة.

اللبنة الأولى والأساسية التي ينبغي إيجادها هي المرأة الصالحة التي يقع على عاتقها الحمل الأكبر في عملية التربية والتكوين والتوجيه والدعوة والجهاد.

فمن الواجب التركيز على تربية نساء المجاهدين تربية شاملة وصحيحة لكي يُخرجن لنا الأجيال المناسبة والمطلوبة، فالمرأة تعتبر الركيزة الأساسية في عملية التربية والتكوين.

كيف لا وهي الأم التي تربي الجيل الصاعد على مبادئ الإسلام الصافي النقي، وتغرس في أطفالنا القيم العالية والأخلاق الراقية وهو الزاد الأساسي لتكوين الشخصية المجاهدة.

وهي كزوجة تقف إلى جانب زوجها تحمل عنه أعباء البيت والأولاد ليتفرغ هو لأعباء الدعوة والجهاد، وزيادة على هذا تقدم له كل الدعم المعنوي والمادي فتعبئ له الطريق ليركز على أهدافه الجهادية فتكون النتائج مبهرة بإذن الله.

وهي كأخت تقف إلى جانب أخيها تساعده على أعباء الدعوة والجهاد في تعبئة النساء والقيام ببعض المهمات الجهادية التي لا يقدر عليها إلا النساء، وبهذا يحصل التكامل في ميدان الدعوة والجهاد.

على الجماعة المجاهدة بعد ذلك أن توفر مدارس خاصة ومستقلة لتربية وتكوين النشئ الذي سيحمل أعباء الدعوة والجهاد في بضع سنين، ولا ينبغي أن تكتفي بالجنود المتوفرين لديها الآن، فالجهاد يستهلك الرجال ما بين الشهادة والاعتقال، وعليه فإنه من الضروري والواجب إعداد الأجيال التي ستأخذ الراية من بعد هؤلاء.

كما ينبغي تأسيس مدارس ومعاهد لإخراج الدعاة والمربين يكونون من داخل الجماعة، لم يتأثروا بالمحيط الفاسد من حولهم ولم يشربوا من نبعه الملوث كذلك، بل شربوا من نبع الإسلام الصافي وتخرجوا من مدرسة الابتلاء والتمحيص والحصار والغربة .

كما أنه لابد من تكوين أبناء الجماعة تكويناً شاملاً ومتشعباً بحيث يكونون قادرين على تسيير أمورهم الدنيوية في مجال الصناعات الخفيفة وكذلك في مجال الإلكترونيات والإعلاميات ودراسة اللغات الأجنبية لكي يكون لديهم اكتفاءاً ذاتياً في جميع المجالات والعلوم التي يحتاجها الجهاد.

كما ينبغي امتلاك أماكن للتدريب لكل الفئات وجميع فنون الرياضة والقتال، بدءاً بقاعات الرياضة البدنية وبخاصة فنون القتال للنشئ الصاعد وانتهاءاً بمعسكرات تدريب حقيقية على فنون القتال وشتى أنواع الأسلحة الموجودة في الساحة.

فإعداد الفوارس والجنود يتم أولاً عبر مراحل التدريب والإعداد الأولي ثم ننتقل بعد ذلك إلى التطبيق العملي على أرض المعارك حيث الجبهات مفتوحة بين جنود الحق وجنود الباطل، وهناك يتم التكوين الصحيح والإعداد الحقيقي بكسر حواجز الخوف وتهيب العدو وخشية الموت، حيث يرتقي المجاهدون ويقطعون أشواطاً كبيرة نحو النصر المرتقب.

يتبين لنا في الختام أن إعداد الرجال هو من أهم الركائز لعملية النهوض المنشودة، فبالرجال يمكن تعبيد الطريق وإزالة العقبات المادية. نعم ، فبالرجال يمكننا هدم الجبال وتحقيق المحال .

فهم رأس المال الحقيقي لكل تجمع إيماني، فلنحرص على تربيتهم وتكوينهم وإعدادهم وفق ما تتطلبه المراحل القادمة، فوالله لا أرى سوى الملاحم والمحن في الأفق القريب والبعيد.

رابعاً: نفقة مستمرة ومتواصلة

النفقة هنا عامة ولها فروع كثيرة لا ينبغي حصرها في النفقة بالمال فقط، بل إن هناك أبواب كثيرة يبخل فيها المسلم بالعطاء والنفقة قد تكون أغلى من المال نفسه.

المؤمن الذي يريد أن يكون مجاهداً لابد أن يبيع نفسه وكل ما يملك لله عز وجل، فيكون وقْفاً لربه ولدينه، يلبي أوامر قيادته الراشدة في كل حين، وعلى أتم الاستعداد للجود بما في يديه نصرة لدينه وتلبية لحاجيات دعوته.

يمكننا سرد بعض هذه الأبواب على سبيل المثال لا الحصر، منها:

إنفاق الوقت

كثير هم الإخوة الذين يكونون على استعداد لإنفاق أموالهم في أبواب الدعوة والجهاد المتعددة ، ويخصص لذلك قسطاً وافراً من عائداته المالية، وقد يكون ذلك على حساب الكثير من مصالحه وحاجياته الأسرية أو التجارية أو غيرها، وقد يجود على دينه ببعض الوقت الفائض المحدود جداً ، لكنه دوماً يتملص ويتهرب من التفرغ لدينه وإعطاء أكبر قدر من الوقت لدعوته وإخوانه للوقوف على الثغور المتنوعة في ميدان الدعوة والجهاد ، فيكون وقته هو الخط الأحمر بينه وبين جماعته، حيث يتحول الوقت لدى الفردالملتزم إلى شيء ثمين لا يمكن أن يفرط فيه فيوزعه بين أهله وشغله وبعض التزاماته الدنيوية الأخرى، ثم يجود على دعوته ودينه ببعض الدقائق وهو في حالة من الإرهاق والتعب لا تكاد تكفي لتلقي بعض المسائل المعلومة من الدين بالضرورة .

بينما هناك عشرات الأعمال التي تنتظر من ينجزها وهي بحاجة إلى أفضل أوقات الإخوة، لأن الوقت قد أصبح رأسمال العمل الجهادي الحقيقي والأساسي، فكيف نهدره في تقوية مؤسسات الطواغيت أو نلهث وراء جمع المال وإعمار الدنيا بخراب آخرتنا ونحن ندَعي أننا من دعاة التغيير والنهضة ؟

إنفاق الولد في سبيل الله

ليست الصورة دوماً أن تدفع ولدك إلى مواقع القتال والجهاد مباشرة هكذا دون مقدمات، بل لابد من التعود أولاً على تهذيبه وتكوينه وإعداده الاعداد اللازم ليكون مجاهداً بحق.

فتكون الخطوات الأولى هو أن تُعَوّده منذ الصغر وتزرع فيه صفات المجاهد كالصبر والتقشف والشجاعة والكرم والبذل والعطاء، وإيثار الغير على النفس، وقبل هذا وذاك إيثار دينه وعقيدته على كل ما بين يديه.

هذه التربية صارت نادرة إن لم أقل منعدمة في أوساط أنصار الجهاد أنفسهم فكيف بالعوام يا ترى؟

لذلك على أنصار الجهاد أن يفتحوا هذه البادرة الطيبة ويرسخوها في محيطهم ليكونوا قدوة لغيرهم، ولا يحتاجون بعد هذا إلى كثير حديث لحث الناس عليها.

إن مسألة النهوض بحاجة إلى وقت أطول مما نتصوره ، فلا تذهب بنا الأحلام بعيداً ونتخيل أن التغيير يمكن أن يأتي بعد عشية وضحاها، كما أنه من غير المعقول أن ننتظر تغييراً بدون رجال ، والرجال كما نعلم جميعاً يُستهلكون أثناء عملية التغيير إما بالقتل أو بالسجن ، فلابد أن نفكر في إعداد الصفوف الثانية والثالثة والرابعة التي ستأخذ الراية وتواصل العمل لتحقيق التغيير والنهضة المرتقبة.

إنفاق البيت والدابة والمنصب

كثيراً ما يحتاج الجهاد إلى بيوت الإخوة ووسائل نقلهم أو أغراضهم المنزلية الأخرى لينجزوا بها أعمالاً في الدعوة والإعداد، وتكون جماعتهم في أشد الحاجة إليها بسبب قلة الموارد المادية لتوفير كل هذا، وحينما تقف على هذه الأمور وتطلب من الأخ أن يساهم بها – إلى حين – لنصرة دينه تجد لدى الأخ رفضاً وهروباً وتملصاً ، وقد يأتي ببعض الأعذار للدفاع عن موقفه ، وهي أعذار أقبح من ذنبه بلاشك، والسبب الحقيقي هو ضعفه الإيماني وإيثاره لدنياه على حساب دينه، فهو لا يزال بعيداً عن قوله تعالى ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾[التوبة:24] .

كذلك الحال حينما يتعلق الأمر بالمنصب أو الوظيفة أو العلاقات مع الآخرين، فإنه يصعب على الأخ التضحية بها حينما تتعارض مع مصلحة دينه، فتترجح لديه كفة هذه العلاقات على كفة دينه والجهاد في سبيل الله.

إنفاق المال

لا معنى لجهاد بدون مال، بل لا جهاد أصلاً إذا لم تكن هناك أموال تغطي حاجياته المختلفة، ولا ضير ولا غرابة أن نجد الجهاد بالمال مقدم على الجهاد بالنفس في كتاب الله عز وجل ﴿ انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[التوبة:09]، وقوله تعالى ﴿ أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ هَلْ أَدُلّكُمْ عَلَىَ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ﴾[الصف:10-11]، وغيرها من آيات الجهاد وقد ورد فيها الجهاد بالمال قبل الجهاد بالنفس.

لقد أخذ الجهاد أشكالاً متعددة وغطى جوانب شتى، وكل مرحلة من مراحله تتطلب تكاليف مادية مستمرة، فلا يمكن أن يتحرك المجاهد بدون هذا السند المادي.

ففي مرحلة الإعداد مثلاً يكون المجاهدون في حالة تفرغ وتركيز على مسائل الاعداد والاستعداد للمعارك ومن غير الطبيعي أن تطلب من هؤلاء المجاهدين تدبير الإمكانيات المادية لتغطية هذه التحركات، بل لابد من وجود فرق خاصة مختصة في جلب الأموال .

ومصادر التمويل لابد أن تكون متعددة وغير مترابطة فيما بينها لضمان الاستمرارية، كما أنه لابد من وجود سرية وكتمان في عملية التمويل، لأن العدو يسعى دوماً إلى كشف ظهر التجمعات الجهادية لكسره أو حصارها ليشل حركتها لكي تظل ضعيفة وحبيسة.

الغنائم من العدو

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث عن ابن عمر رضي الله عنهما" بعثت بين يدي الساعة بالسيف ، حتى يعبد الله تعالى وحده لا شريك له ، و جعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذل و الصغار على من خالف أمري ، و من تشبه بقوم فهو منهم ".

فقه الجهاد من الأمور التي هُجرت وحُرّف مفهومها وغُيب تطبيقها على أرض الواقع، وصار من صفحات ماضينا، نذكره في السير لأبنائنا – هذا إن كنا فاعلين – بينما أعداؤنا يطبقونه علينا ليل نهار ونحن به راضون ومقرون.

ندفع له فواتير الذل والهوان من أموالنا وأرزاق أبنائنا وخيرات بلداننا من المحيط إلى الخليج، ولا من يحرك ساكناً، بل لا أحد يدرك أصلاً انها غنائم وفيء بدون حرب ، فالعدو يكتفي برفع عصاه النووية أو العسكرية التقليدية أو عصاه المسماة بالحصار الإقتصادي أو العصا الجديدة التي تُعتبر آخر صرعة في هذا المجال وهي عصا تهمة الإرهاب أو مساندة الإرهاب، يكفي أن يرفع إحدى هذه العصي لكي يحصل على كل ما يريد وزيادة.

كل هذا يحصل ونحن محاصرون بل ومحتلون في أغلب بلداننا، وحينما يقوم المجاهدون بدفع هذا الصائل المحتل ومحاولة استرداد بعض من خيراتنا المنهوبة، يقوم الطابور الخامس من علماء النفاق والسلطان ليتحدثوا عن التسامح وترك العنف وابتغاء الحلال وعدم الاعتداء على أموال الغير وغيرها من الجرائم المدعاة والمنسوبة ظلماً وزوراً إلى المجاهدين.

إن الأنظمة الحاكمة المرتدة تعتبر أنظمة محاربة لله ولرسوله وللمؤمنين، وهي تستمد شرعيتها وقوتها من الاحتلال الكافر الذي يمتص خيراتنا كما أسلفنا القول، وعليه فإن كل المؤسسات الاقتصادية لهذه الأنظمة تعتبر أهدافاً مشروعة وحلالاً طيباً للمجاهدين ينبغي الاجتهاد في كيفية تقويضها لإضعاف هذه الأنظمة أو غنمها لتقوية شوكة الجهاد.

وفي هذا المجال ينبغي على المجاهدين وبخاصة قياداتهم أن يُعمِلوا عقولهم للبحث عن الوسائل المناسبة لجعل الغنائم إحدى أهم مصادر التمويل للمشروع الجهادي، وأن لا يخجلوا أبداً من طرح هذا الفقه المهجور وإحيائه في النفوس لكي تعود القوة والشوكة للمجاهدين.

ولنسحب البساط من تحت أقدام العدو فنبادر إلى الاستيلاء على أموال المسلمين واستغلال خيرات بلداننا لتخدم الجهاد بدلاً من أن تُقدم رخيصة لليهود والصليبيين في الخارج ولأنظمتنا المرتدة في الداخل.

النفقة في العسر واليسر

ينبغي علينا أن ننظر إلى مفهوم النفقة بشموليته، فهو لا يتعلق فقط بالمال،–كما قد يتبادر إلى الأذهان–، بل لابد من إنفاق كل ما يملك المسلم في سبيل الله، أو بالتعبير القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُون﴾ [البقرة:254].

فأنت مطالب أيها المسلم بأن تنفق كل ما وهبك الله من رزق ولا تبخل به إن كنت صادقاً في انتمائك لهذا الدين، لأنك إنما تبخل على نفسك، وإذا أنفقت فستجد ذلك عند الله، فلمَ البخل ؟ فالنفقة تنجي صاحبها من التهلكة بدليل قوله تعالى ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾[البقرة:195] .

روي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير، عن أسلم أبي عمران، قال حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا أبو أيوب الأنصاري فقال ناس: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب الأنصاري نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا، صحبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الإسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تحبباً فقلنا قد أكرمنا الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونصره حتى فشا الإسلام وكثر أهله وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما، فنزل فينا ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ فكانت التهلكة في الإقامة في الأهل والمال وترك الجهاد. [رواه أبو داود والترمذي والنسائي].

أقول: انظروا كيف ذمَّ الله تعالى أناساً قد أقاموا دولة الإسلام بأموالهم ودمائهم، فأرادوا القعود مع الأهل والمال، بعد ما ظنوا أنهم قد قاموا بما عليهم من واجب، فماذا نقول في أمتنا التي بخلت على دينها في وقت تكالب عليها الأعداء، وغابت فيها شرائع الإسلام وحلَّ محلها الكفر والردة والنفاق؟

وتتطلب مرحلة الدعوة أيضاً إنفاق المال وهو أعلى مرتبة من الوقت من حيث الأهمية، فكثير من الناس يستطيعون إنفاق أوقاتهم في سبيل الدين، ولكنهم يبخلون بالمال، ومن أجل ذلك ذكره الله تعالى في جميع آيات الجهاد قبل النفس مباشرة، باستثناء آية البيعة حيث قُدِّمت النفس على المال وذلك في قوله تعالى ﴿إِنَّ اللهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمْ الْجَنَّةَ﴾[التوبة:111].

فالذي لا يستطيع أن ينفق ماله في سبيل الله، من باب أولى لن يستطيع تقديم نفسه في سبيل نصرة دين الله، ومن أجل هذا لا بد للمؤمن أن يدرِّب نفسه ويعوِّدها من أجل الجود بالمال لتصل إلى الجود بالنفس، وهو أعلى مراتب الجود.

أما في مرحلة الجهاد، فإن النفقة تفرض نفسها أكثر، سواء على مستوى الوقت أو المال أو الأهل أو المناصب أو النفس وهي غاية الجود.

فبالنسبة لعنصر الوقت فإن المجاهد يتفرغ كلياً للجهاد، ولا يترك شيئاً من وقته للمسائل الأخرى إلا ما له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بجهاده، فحياته تتحول إلى جندية حقيقية، تراه حاضراً باستمرار في كل مواقع الجهاد، لا يغادر موقعه إلا بأمر من قيادته حتى لا يؤتى الإسلام من قبله، فالثغرة التي نستهين بها هي التي يمكن أن يدخل منها العدو، فيوقع فينا الخسائر الفادحة التي يمكن أن تهدم البنيان.

أما على مستوى المال، فإن المجاهد يساهم بماله في الجهاد ويسعى دوماً إلى تغطية متطلبات جهاده وجهاد غيره، كما أنه يساهم في البحث عن كل السبل الشرعية للحصول على الموارد المالية للتجمع الإيماني الذي ينتمي إليه، حتى لا يتوقف الجهاد، لأنه يدرك أن المال هو عصب العمل الجهادي، وبدونه لا يمكن التقدم وتحقيق أهدافه .

ومن هنا ترى المجاهد المخلص والصادق في جهاده يحس بالحرج والضيق حينما لا يجد ما ينفقه في سبيل الله، ويخاف من أن يقعده هذا النقص عن واجبات الجهاد فيكون من القاعدين.

ومن أنواع النفقة في مرحلة الجهاد أيضاً، هو إمكانية فقدان الأهل والولد في سبيل الله تعالى، وذلك حينما يكون المجاهد مخيراً بينهم وبين ترك الجهاد والركون إلى الدنيا في مقابل الحفاظ عليهم، سواء بسبب رفض أهله مواصلة الجهاد معه، أو بسبب الضغوط والمساومات التي يتعرض لها من قبل الأعداء حيث يخيرونه بين ترك الجهاد وبين التضحية بأهله وولده، فلا يكون خياره حينئذ إلا مواصلة الجهاد والنفقة بأهله قرباناً إلى الله تعالى إما بالاستشهاد أو التهجير. وقد عاش الرعيل الأول من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضاً من هذه الصور عند هجرتهم من مكة إلى المدينة، حيث حرمهم المشركون من أهليهم وأولادهم، وعاشها الكثير من المجاهدين في العصور التالية، وها نحن نرى نماذج أخرى في هذا العصر حيث قدَّم المجاهدون أمثلة رائعة في النفقة والتضحية بأهليهم وذويهم في مقابل مواصلة درب الجهاد والصمود، فللَّه درُّهم.

النفقة في العسر هي المحك، فهنا تظهر حقيقة الإيمان والالتزام، لأنه ما أسهل أن ينفق المرء في حالات اليسر، وما أسهل أن يدّعي المرء الشجاعة والكرم والجود في حالات الرخاء والفراغ، ولكن القليل من يوفِّي ويصدق في دعواه حينما تشتد المحن ويقل الزاد وينادي منادي الجهاد.

أنظروا كيف تعامل الأنصار مع بنود هذه البيعة عند أول امتحان لهم على أرض الواقع، وذلك عندما هاجر إليهم إخوانهم من مكة، فطلب منهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتآخوا في الله أخوين أخوين، فاستجابوا لهذا النداء النبوي وزيادة، حيث قسموا أموالهم وبيوتهم نصفين مع إخوانهم المهاجرين، بل منهم من طلب من أخيه المهاجر أن يختار إحدى زوجتيه ليطلقها فيتزوجها أخوه (يتعلق الأمر بسعد بن الربيع مع عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما).

وصور أخرى فريدة من نفقة الأموال والأنفس في الغزوات تعج بها كتب السيرة، لولا خوفي من الإطالة لذكرت العشرات منها، وكان الصحابي يأتي ليجاهد فلا يجد ما ينفقه في سبيل الله فيرجع باكياً متحسراً ألا يستطيع الخروج مع الجيش، ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ، تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ أَلا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة 93].

وبعد،

إذا ألقينا نظرة فاحصة على واقع الحركات الإسلامية المعاصرة، فإننا نجد صنفين أساسيين لا ثالث لهما، صنف يسير وفق بنود بيعة العقبة، خاصة البندين سالفي الذكر (الطاعة والنفقة)، حيث نجد أفرادها يلتزمون بهما ويجسدانهما خير تجسيد، ومن أجل هذا نجحت وتقدمت في مسيرتها الجهادية وأصبحت تهدد وتخيف العالم الكافر وأعوانه من المرتدين والمنافقين، وتحولت إلى شوكة في حلوقهم لن تزول حتى تحقق أهدافها بإذن الله.

والصنف الثاني انحرف عن هذه البيعة ولم يحقق بنودها كما يجب، خاصة في مسألة النفقة، حيث اتخذوا هذا الدين حرفة ثانوية، واتخذوه سلماً للوصول إلى مآربهم الشخصية وبقرة حلوباً يقتاتون منها، فتأخرت مسيرتهم وحادوا عن النهج الصحيح، واندحرت حركتهم وبقيت تدور حول نفسها بالرغم من كثرة أفرادها.

وقد تنبه الأعداء إلى هذه الثغرة الكبيرة في صفوف الحركات الإسلامية، فحاولوا اللعب على هذا الوتر الحساس وروَّضوا المسلمين على حب المناصب والارتباط بها، وأوهموهم بأنها وسائل ناجعة لخدمة الدين، فتحولت هذه الوسائل إلى أهداف وغايات لدى أصحابها، حتى نسوا الغايات الحقيقية، وعز عليهم التفريط والنفقة بهذه الوسائل، وزهدوا في دينهم وزين لهم الشيطان أعمالهم وأضلهم عن السبيل.

نسأل الله جل وعلا أن يعيننا على تحمل مسؤولياتنا وتجسيد بند النفقة في سبيل الله في اليسر والعسر، بأوقاتنا وأهلينا ومساكننا ومناصبنا وتجارتنا وأنفسنا، ويجعل كل هذا وسائل لخدمة ديننا، لا أهداف في حد ذاتها، كما نسأله عز وجل أن يعيننا على تطبيق قوله تعالى ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنَ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة 24.].

كانت هذه أهم عوامل النهوض التي أردت أن أقف عليها بشيء من التفصيل، لعلها تفي بالمراد وأكون قد وُفقت فيها، فإن كان هذا فهي منة وفضل من الله وحده، وإن كان غير ذلك فمن نفسي القاصرة ومن الشيطان، ونسأله سبحانه أن يبصرنا بنقائصنا وعيوبنا ويلهمنا الحكمة والصواب في القول والعمل.

والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وقفة شكر وتنبيه: أغتنم هذه الفرصة لأجدد الشكر لأخي الحبيب الشيخ أبو مسلم الجزائري على فتحه لهذه الندوة المهمة للغاية، والشكر موصول لكل من شارك برأي أو اقتراح فاعل في مسألة النهوض وهي بلا شك مسألة تهم الجميع، وأدعو القراء الكرام الرجوع إلى مكان الندوة في أرشيف الشموخ للإطلاع على آراء وتدخلات الإخوة الفاعلة والنافعة في هذه القضية .

هذا والله تعالى أعلى وأعلم وأحكم ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وكتبه أبو سعد العاملي – غفر الله ولوالديه –. عام 1432هـ.

مع تحيات إخوانكم في

مؤسسة المأسدة الإعلامية

(صوت شبكة شموخ الإسلام)